الفصل الأول

بدء الرحلة . كونت لبلة . جبل طارق
قادس . ساحل الغرب . جزائر
البليار . العاصفة
جنوة

فردنا القلاع وغادرنا ميناء « سان لوكار دى برّاميدا » ، وكان سفرى فى سفينة من سفن غاليسيا لأننى كنت قد أعددت عدة الرحيل دون أن يكون لدى شىء من الجياد أو سواها من الوسائل الضرورية للسفر براً ، وظللنا مبحرين طوال يومنا هذا والليلة التى تلته ، حتى إذا عطفنا على رأس الطرف الأغر دخلنا المضيق ، وبلغنا — مع انبلاج ضوء النهار — جبل « كارنيرو » عند مدخل جبل طارق ، وأرسينا على مقربة من البلد ، وطالعنا عدداً كبيراً من سفن الملك ، وغراباً من أغربته جاءت صحبة كونت لبلة[1] الذى وجدناه قد أرسى على مسافة نصف فرسخ من جبل طارق وبصحبته ألف ومائتا فارس وخمسة آلاف من المشاة وبرفقته ابنه أيضاً ، وإذ ذاك غادرتُ السفينة ومضيتُ قُدُما لمقابلة الكونت الذى سرّه لقائى ، واستبدّ به العجب كيف تمكنتُ من القدوم رغم ما كنت أعانيه من مرض ألمّ بى حديثاً ، ثم أخذ فى مشاورة فرسانه مُفضياً إليهم بسبب وجوده هناك ، وكان قد أبقى هذا الخبر مكتوماً عنهم حتى اللحظة ، وكان الأمر كما يلى : لقد أنبأه بعضهم أنه لا يوجد فى جبل طارق عشرة من المسلمين المقاتلين ، على حين أن ألفاً من الرجال قلّ أن يكفُوا

للدفاع عن حصن عظيم مثل هذا الحصن الذى لن يلبث أن يقع فى يديه إن هو باغته بالهجوم . لذلك رسم أن يتجمّع فرسانه عند المدخل الواقع على اليابسة ؛ أما هو فيكرّ بمن معه من المدججين بالسلاح كرّة خاطفة على تلك الناحية من الجبل المتاخمة للمرفأ ، حيث دخل الملك ألفونسو .

ورسم الكونت أيضاً لابنه « دون خوان » أن يزحف عن طريق البحر على برج « تورتو » القائم على الجبل ، وفى هذه الأثناء يكون الباسكيون قد مضوا قُدُما فى سفنهم وغرابهم لمهاجمة حصن « كازال دى جينوفيز » الواقع على أعلى قمة هذا الجبل .

على هذا النمط رتّب الكونت كل شىء ، فلما كان اليوم التالى انطلق كل فريق — بعد فراغه من القداس — إلى الناحية التى اتفق على وقوفه بها ، ثم خرجنا نحن بعدئذ واقتربنا من البلد ، حتى إذا بلغ الجزر مداه غادرنا السفن وتحركنا شطر السور ، بيد أننا لم نصطحب معنا فى ذلك اليوم مدفعيتنا ، إذ لم يكن همّنا يومذاك إلا استطلاع عدد القائمين بالدفاع عن هذا المكان. لكننا لم نكد نصاقب السور حتى لقى خمسة عشر رجلاً أو عشرون من رجالنا مصرعهم ، واضطربنا اضطراباً لم نَلْقَ معه بالا إلى أن المدّ أخذ فى الارتفاع حتى أصبحنا نخوض فى المياه إلى ركبنا . ولما رأى الكونت عجزنا عن القيام بشىء ما — إلى جانب إننا لم نجلب معنا مدفعيتنا — فقد أصدر أمره بأن نعود على أعقابنا إلى البحر ، فارتد الرجال إلى القوارب ، بينما تخلف الكونت لجمع الآخرين ، وبينما هو يتأهب للوثوب فى القارب الأخير هو وعشرة أو اثنا عشر فارساً ممن ظلوا معه على الشاطىء أدرك العدو أن لم تبق غير شرذمة قليلين ، وقد انسحب الآخرون دون إصدار أوامر بتغطية هذا الانسحاب بالسهام والمدافع ، وعرف العدو أن الجميع قد ركبوا البحر حين أوشك القارب

الأخير على الرحيل ، وإذ ذاك قامت جماعة من فرسان المسلمين يبلغون العشرين وطائفة كبيرة من مشاتهم وحملوا على القارب — وكان صغيراً قد أثقلته حمولته فانقلب بمن فيه ، وابتلع اليم الكونت ومن معه ؛ حدث هذا فى الوقت الذى كانت فيه التدابير الأخرى قائمة على قدم وساق ، ونهض بقية الرجال بأكثر مما يستطيعون من الأعمال ؛ ولم يُستَثْنَ من ذلك سوى من على الشاطىء من الفرسان الذين لم يجدوا ثَمَّ من يقاتلونه فلم نَرَ من العودة بداً ، وانكفأنا راجعين يرمضنا الحزن لفقدنا هذا القائد المحنك فى البر والبحر على السواء ، واثنينا قافلين إلى قشتالة ، ومنها إلى « سان لوكار » التى كان إقلاعنا عنها من قبل .

* * *

وجبل طارق قلعة بلغت من المناعة منتهاها ، وخبرها ذائع فى شتى ربوع الدنيا ، وهو يقوم عند فم المضيق ، حيث يلتقى المحيط الأطلسى بالبحر الأبيض المتوسط ، وأرضه شديدة الخصب ، أما المدينة فتشرف على المدخل المؤدى إلى الأرض الرئيسية الشديدة الضيق والتى تمتد من هناك إلى قمة الصخرة مسافة تقرب من فرسخ ، وهى حصينة التسوير حافلة بالبساتين والكروم والمياه العذبة ، وتجثم فى بقعة شديدة الانخفاض واقعة على سيف البحر ، وتنهض خلفها الصخرة التى تضرب بقمتها إلى العنان ، حتى ليحسب رائيها أنها تمس السماء ثم تنتصب معتدلة ، وعلى الرغم من مظهرها القوى من ناحية الغرب إلا أنها تبدو من الشرق أكثر صلاحية ، ومرفؤها أمين كل الأمان ، وهو عبارة عن لسان من البحر يدخل فى اليابسة حتى يبلغ أرض الجزيرة الخضراء ، ويمتد مسافة ثلاثة فراسخ صالحة كلها لرسو السفن .

غادرنا هذا المكان ، وركبنا المضيق ونحن نشاهد رأس طريف ، ومررنا بميناء قادس وسواه من الأماكن الواقعة على الساحل ، ثم دخلنا ميناء « برّاميدا » عند سان لوكار ، حيث تلقّانا من بها بقلوب أقلّ انشراحاً عما كانت عليه حين رحيلنا عنهما من قبل ، فجمعت ما كنتُ قد جهزته ، وامتطيت ظهر مركب كبير يملكه « خيرونيمو دى ڤولتاخو » الذى كان قد قدم من جنوة بسفينتين أخريين تابعتين «لاستبان دوريا » و « خيرونيمو دوريا » ، وعليهما جماعة من الجنود للدفاع عنهما ضد القطالونيين ، كما أبحر عليهما معظم الجنوية الذين كانوا فى أشبيلية لما كانوا يحملونه من الأموال الضخمة .

* * *

خلّفنا وراءنا ميناء قادس ، وبلغنا ساحل إفريقية وقد أدركنا مدينة تسمى « أصيلة » ، حيث كان علينا أن نفرغ شحنتنا بها ونأخذ أخرى جديدة مكانها ، وهذه البلدة ملاصقة لرأس « اسبارتيل » وتابعة لملك فاس ، ومن ثم كان عليها والٍ من قِبَـــله وهو فارس بربرى اسمه « مصالة ابن مصالة » .

وأصيلة مدينة وافرة الخصوبة ، غير أنها تزخر بالحيوانات والطيور أكثر من أى شىء آخر ، فأقمنا بها ثلاثة أيام ، ثم أقلعنا منها ودخلنا مضيق جبل طارق ، فلما حانت ساعة صلاة الغروب أبصرنا فى الظلام سفينتين كبيرتين حَسِبْنَاهُما من سفن القطالونيين ، فمدنا أدراجنا إلى الوراء وأرسينا بعيداً عن طنجة ، بيد أن السفينتين مضيتا فى طريقهما إلى قادس ، فلما كان اليوم التالى تابعنا الرحلة وبلغنا « سبتة » حيث علمنا من أحـد القوارب

الباسكية أن هذين المركبين من مراكب الأسطول الجنوى ، وأنهما جاءا من جنوة لمصاحبة سفننا الثلاث ، فأرسينا فى سبتة وغادرنا السفن وطلبنا قارباً صغيراً ذا شراع واحد ، وأنفذنا الرسائل إلى قادس طالبين أن تنتظرنا بها الشوانى وإلاّ فلتُلاقنا فى مالقة حيث كان علينا أن نفرغ بها حمولتنا ونتزود فيها من جديد .

* * *

وبقينا ذلك اليوم فى سبتة ، وخرجْت لتفقد المدينة ومشاهدة ضواحيها التى بدت لى أجمل ما تكون منظراً ، ودلت على أنها بلد كبير ، وليس من شك فى أنّ لو استولى عليها ملك[٢] قشتالة وزينها للناظرين لأضحت بسبب موقعها أعظم بلاد العالم فتنة .

وأرضها على وجه العموم خصبة رغم وعورتها ، والإقليم جبلى ، غير أنه توجد به ميناء صالحة وأرض فسيحة ، وفاكهة وفيرة ، ومياه غزيرة ، وأما ما سوى ذلك من المدينة فقد بلغ من القوة مبلغاً عظيما ، إذ يوجد على أحد جانبى الجبل مكان صخرى يحوطه سور يسمونه « الالمنيان » ، لا بد وأن يبلغ من العظم غايته لو قدر له ما كان ينبغى أن يكونه .

وتعج جبال سبتة هذه بالأسود التى يبلغ عددها هنا أكثر منه فى أى مكان آخر بالعالم ، ويعجز العد عن إحصاء ما بها من القنافذ والقرود والفهود والدببة والخنازير ، ويقال إنه يُشك فيما إذا كان يوجد ثم مكان آخر على الجانب الإفريقى أعظم من هذا المكان ارتفاعاً وأكثر جبالاً ، ويقال إن سبب ذلك قربه من الغرب ووقوعه على هذا الجانب من المضيق .

ورحلنا عن سبتة مخلفين إفريقية على يميننا وأوربة على يسارنا ، وأبحرنا فى المضيق ، حتى أرسينا على ساحل مدينة مالقة التابعة لملك غرناطة ، حيث أرسى التجار وأفرغوا بها بضائعهم ثم تزودوا بسلع أخرى غيرها ، فأقمنا بها تسعة أيام سويا .

وفى أثناء إقامتنا هذه وصلت السفينتان اللتان مرّتا بنا فنقلنا رجالاتهما إلى سفننا وحملتا البضائع وعادتا إلى قادس لأخذ بضائع أخرى إلى هولندة ، على أنه لم يكن لنا شاغل أثناء هذه الأيام التسعة سوى استملاء النظر بروعة مدينة مالقة التى أثّرت فىّ تأثيراً طيباً ، سواء من ناحية موقعها — رغم عدم وجود ميناء لها ، — أو من ناحية تربتها — رغم قلة خيرها — ، غير أن كل ما فيها حسن ولا ينقصها شىء من البساتين والفواكه .

والمدينة منبسطة ومعظمها مسور ، وعلى جانبيها حصنان يصل بينهما ممر له حائط يسمونه « جبر الفار » ، وهى تفيض بشتى أنواع المتاجر ، ولو كانت تابعة لنا لكانت أحسن مما هى عليه ، غير أن جميع أنواع التجارة كان لابد لها من أن تذهب إليها من قطرنا الذى لا يخاف قط من أى مكان فى حوزة المسلمين ، ويتدفق البحر تدفقاً يبلغ جدرانها حتى ليستطيع أى أسطول من الأغربة سَدّ بعض الأرماث إلى الأرض الواطئة ، إذا أن المنطقة الممتدة إلى البحر شديدة الانخفاض رغم حصانة تسويرها من ناحية البر ، وهى غاصة بالأهالى الذين تتألف غالبيتهم من طبقة التجار ، وإن قلّ البارع منهم فى فنون الحرب .

وبعد أن قضى الجنوية تسعة أيام فى مالقة جمعوا بضائعهم وجهزوا السفن

بالسلاح وأعدوها للإبحار ، إذ كان عليهم أن يسافروا قرب الشاطىء من لسان فى البحر إلى لسان آخر على طول امتداد بلاد ملك أرغونة ، وتابعنا الإبحار على طول ساحل غرناطة ، واجتزنا « سالوبرينا » وحصن «المنكب» و«ألميرة» حتى أدركنا قرطاجنة الواقعة فى بلادنا ، فدخلنا الميناء ومكثنا هناك يوماً ونحن فى انتظار سماع أخبار الكتلان .

وقرطاجنة كميناء — فى تقديرى — من أحسن موانى العالم ، أما البلدة فرائعة ، وقد رحلنا وأبحرنا موازين لشاطىء « أرغونة » ، مارّين « بلكة » ، حتى غدونا على مقربة من « بلنسية » حيث أسدانا البعض النصيحة بمغادرة الساحل والخروج إلى عرض البحر ، فلما جاء اليوم التالى لمبارحتنا الشاطىء قاربنا جزيرة « إيفيشيا » التابعة لملك أرغونة ، ومن ثم تابعنا طريقنا جاعلين « قطالونيا » و « برشلونة » على يسارنا ، مارين بجزائر «ميورقة» و«منورقة» التابعة للملك نفسه ، ودخلنا خليج « ليون » الذى يسمى بهذا الاسم حين خروج المرء منه ، أما عند مدخله فيعرف بخليج نربونة .

وحدث فى ذات يوم عند صلاة الغروب أن هبّت عاصفة هوجاء أرغمتنا على الهروب أمامها طوال الليل ، فلما كان الغد كنا جدّ بعيدين .

أما الشينيتان الكبيرتان فقد دفعتهما الريح بلا أشرعة شطر سردينيا ، ومضى شهران لم نسمع فيهما خبراً عنهما ، غير أن سفينتنا التى كانت لا تزال محتفظة بشراعها الرئيسى — وإن لم يبق منه غير جزء بسيط — فقد ظلت مصاقبة للجزيرة التى يسمونها بجزيرة «تيتان» قرب شاطىء بروفنس ، وبقينا يومنا هذا والليلة التالية له ونحن فى خطر مقيم ومشقة بالغة ، بيد أننا تابعنا السير ، حتى

إذا كانت الغداة وصلنا إلى نيس ، وكانت الليلة ليلة عيد الميلاد فألقينا مراسينا بها وأصلحنا أشرعتنا ، ثم سافرنا إلى مدينة « سافونا » الجميلة التابعة لجنوة ، وبقينا بها يوم عيد الميلاد[٣] ثم أبحرنا فى اليوم التالى ونحن جد قريبين من البر مقاربين للشاطىء على بعد أربعين ميلا من جنوة وهى أجمل منظر فى الدنيا . ويبدو الساحل من سافونا إلى جنوة — لمن لا يعرفه — أشبه بمدينة واحدة موصولة ، وهو آهل بالسكان ، مزدحم بالدور .

الفصل الثانى

جنوة . مقاضاة بعض التجار . سان لورنزو .
الأملاك الجنوية فى الخارج . السكان .
الثورة . بيزا . فلورنسا بستويا .
بولونيا . البابا أيوجين . فرارا .
صكوك التبادل
البندقيـة

. . .

دخلنا ميناء جنوة على مقربة من الحاجز القائم بها ، واستقبلنا رجالها ونساؤها بغاية الترحاب وإن كانوا جدّ محزونين أسفاً على المركبَين ، إذْ لم يعلم أحد ما جرى لهما ، وغادرنا السفينة ونزلنا اليابسة ، لـكن قبل دخولنا المدينة قطعنا مسافة نصف فرسخ حتى بلغنا كنيسة سيدتنا كورونا وفاء لنذر نزرناه أثناء العاصفة ، ودبرت لنفسى مكاناً أقيم فيه طوال الخمسة عشر يوماً التى سأبقاها فى جنوة ، والواقع أننى كنت فى مسيس الحاجة إلى الراحة ، إذْ أرهقنى الانهماك فى العمل وأمضّنى الحزن وأجهدنى دوار البحر ، وأحسست بشدة نقمتى على نفسى ، وكانت هذه أول مرة بدأت أعرف فيها الله ، إذ انقضت علىّ بضعة أيام وأنا منهمك فى مقاضاة فئة معينة من التجار الذين لم يحترموا بعض صكوك التبادل النقدى التى كانت معى ، غير أن الدوج[٤] — وكثيراً من سادة هذا البلد — أظهروا لى مزيداً من الاحترام وأحاطونى برعايتهم ، وحملوا التجار على أن يدفعوا لى استحقاقاتى وضعف النفقات التى حمّلونى إياها .

والمدينة قديمة جداً ، ويزعمون أن بانيها هو « جانوس » أمير طروادة بعد تدميرها[٥] ، والواقع أنها تبدو أشبه بعمل رجل ذاق مرارة الهزيمة ، إذ أنها مقامة على جبل سامق الارتفاع مشرف على البحر ، وجميع بيوتها أقرب ما تكون شبهاً بالأبراج ، وهى مؤلفة من أربعة طوابق أو خمسة وقد تزيد عن ذلك ، على حين أن شوارعها شديدة الضيق ويصعب اقتحامها ؛ والتربة جد قحطاء غير أن أهلها أهل جد وعمل ، وهم يجلبون الميرة من جميع نواحى العالم ، ومن ثم فالمدينة وافرة المئونة كما لو كانت الأرض خصبة .

ولها ميناء رائع ورصيف به برج ومنارة تظل موقدة طول الليل ، ويوجد على الشاطئ الآخر للميناء برج ثان شديد الارتفاع ، به هو الآخر منارة حتى لا يضل أحد ما الطريق إلى مدخل الميناء، وبلغت نفقات ذلك كله مبالغ طائلة .

والأديرة رائعة جداً شأنها فى ذلك شأن كنائسها التى أعظمها الكنيسة المسماة « بسان لورنزو » التى بلغت الغاية فى الجمال ، لا سيما سقيفة بابها ، ويحتفظ القوم بالكأس المقدس المصنوع من زمردة[٦] واحدة ، وهو فى الواقع أثر مدهش من المخلفات المقدسة ؛ أما حكم المدينة وإدارة جميع أملاكها ففى يد الأهالى الذين مكّنهم جدهم وحكمتهم من الاستحواذ على كثير من المدن والقلاع فى الداخل ، كما ساعدهم ذلك أيضاً على احتلال بعض الجزر فى البحر. فلهم جزيرة « خيوس » و « ميتلينى » ، وتتبعهم فى جزيرة « قبرص » المدينة المسماة « بالماغوصة » التى استولوا عليها حين أسروا ملك قبرص وحملوه هو وزوجته معهم إلى جنوة[٧] ، وقد ولد أبو الملك الحالى[٨] هناك فى «فاروس» ، وسمى « جانوس » نسبةً إلى مولده فى جنوة ، وهم يملكون أيضاً مدينة « بيريه » المتاخمة للقسطنطينة ، ومدينة أخرى تدعى « كافا »

الواقعة فى طرف البحر الأسود والمشابهة لإشبيلية فى ضخامتها إن لم تزد عليها ، وللجنوية بعض القلاع فى بحر أزوف وكذلك فى تركيا .

والشعب الجنوى شعب بحرى قوى جداً ، وتعتبر شوانى المدينة على الخصوص أحسن شوانى العالم على الإطلاق ، ولولا المنازعات العنيفة الناشبة بين أهلها لامتد سلطانهم على كافة أنحاء الدنيا ، وهم أهل جد لم تدنسهم الرذائل ولم ينغمروا فى المتع الجسدية التى لا تشجع عليها طبيعة البلد ، هذا بالإضافة إلى ما هم عليه من الثروة وحب النظام . أما فيما يتعلق بالملبس فإنهم إذا رأوا أحداً — رجلا كان أو امرأة — قد أسرف فى ملبسه إسرافاً لا مبرّر له فرضوا عليه غرامة . وبشرتهم جميلة جداً وإن لم يكونوا فاتنى الوجوه رغم العناية بهم ذكوراً وإناثاً من حيث التغذية ، وهم يقوّمون النساء بأحجامهن ، فأفرعهن طولا أقلهن مهراً ، وإذا ترمّلت المرأة لم تتزوج ثانية ، فإن فعلت ذلك لاكت الألسن سيرتها بقالة السوء .

* * *

وفى أثناء الاضطرابات التى ألمّت بالناس دخل دوج « ميلانو » المدينة مع فريق من الثائرين . وتولى حكمها ، غير أن أهلها تمردوا — خلال إقامتى بها — على الدوج[٩] وقتلوا واحداً من قواده المقيمين بها ، واسمه « باسينو اليتانو » ، وهدموا حصنه القريب من المدينة ، وقد دعانى القوم لرؤية السجن المخيف الذى كان يُلقى فيه ملوك أرغونة ونفارة بمن يقع فى أسرهم من الفرسان .

ويوجد السمك — وإن كان بقلّة — فى البحر عند جنوة ولكن الموجود منه شديد الصغر . ولا جدال فى أنّ لو كان رجال الأمم الأخرى قد طبعوا

كالجنوية على حبّ الرحلة موكلين ببقاع الأرض يذرعونها وتطول غيبتهم عن ديارهم لتهدد الخطر الجسيم عفة نسائهم ، غير أن القوم هنا يقدّرون الناحية الأخلاقية تقديراً عظيما ، حتى إنه قل أن ترتكب امرأة الفحشاء ، فإن جرى مثل ذلك لم يكن لها من عقاب سوى القتل .

* * *

غادرت جنوة وسافرت مبحراً على طول الشاطئ المزدحم بالسكان ، ومضيت إلى « سسترى ليڤانت » ، ومنها وصلت إلى « برتوفينيرى » فى اليوم الذى ثار فيه الأهالى ضد دوق ميلانو وملك أرغونة ، إذ كان الدوق قد سلم المكان للملك .

وبرتو فينيرى ميناء جيد تواجهه جزيرة تعتبر خير وقاء له ، والبلدة شديدة المناعة لوجود حصنين يقعان عند طرفيها . ولقد أبحرنا من هنا إلى مدينة «سبيزيا» الكبيرة التابعة لجنوة ، فانحدرنا منها إلى « لريتشى » ، وهى حصن قوى من أملاك ملك أرغونة ، ثم جئنا بعد ذلك إلى « بيترا سانتا » ، حتى إذا كانت ساعة صلاة الغروب وصلنا إلى خارج « ليجهورن » ، وهى ميناء بيزا ؛ وكان كونت « موديكا » قد جاءها من نابلى فى أربعة عشر غراباً فأخذ سفينتنا وبعث بجميع من كان بها من الجنوية إلى الأغربة ، على أنه كان من جهة أخرى حفيّا بى ، ولقينى لقاء كريماً عظيما ، وأبدى لى رغبته أن أرحل لساعتى ، غير أن بعض الفرسان القطالونيين أخبروه بمدى الخطر الداهم الذى أتعرض له من جانب الرجال المسلّحين فى تلك النواحى الذين يستأجرهم كونت[١٠] فرانشسكو قائد الفلورنسيين إذ ذاك ، وكان حينئذ شديد التحيز للجنويّة ، ولقد سمع الكونت منى كيف ثارت « بورتوفينيرى » ضد ملك

أراجون ، وأن « نيكولا[11] بتشنينو » كان هناك مع رجاله وكيف عدت معه إلى « ليبرتشى » ووجدنا الحصن فى أمان وسلامة ، ولـكن المدينة فى فتنة وقد نهبها الثوار وهاجموا « سيزيا » و« بورتوفينيرى » برّاً وبحراً ، ولـكنهم لم يستطيعوا الاستيلاء عليهما رغم تخريبهم ما حولها .

أرسانى بعـدئذ كونت « موديكا » و « نيكولا بتشنينو » إلى «بورتوفينيرى» وأعطيانى أربعة أسرى من الجنوية توكيداً لحسن معاملتى ، فلما بلغت « بورتوفينيرى » — حيث كنت معروفاً بها — وجدت مركباً أبحرت فيه إلى « لجهورن » ، وإذْ دخل المركب نهر « بيزا » وصلت إلى المدينة ، وإنه لمن الممكن على السفن — وقت المدّ — أن تصل إلى الأسوار ، ولقـد مرّ وقت من الأوقات بلغت فيه بيزا معارج القوة والثروة ، ولها أملاك كثيرة ما بين أراض وجزر ، وقد غدى البيازنة الآن خاضعين للفلورنسيين بعد أن كانوا سادتهم بالأمس .

• • •

بعد مغادرتى « بيزا » وصلت إلى « فلورنسا » ، وعلى بعد عشرة فراسخ من تلك البقعة عبرت قطراً كثير الفواكه ، واجتزت قرى كبيرة كانت مفقرة من السكان إبان الحروب البيزية ، وتشتهر فلورنسة بضخامتها وثروتها وجمالها من الداخل والخارج .

وهى تقع فى سهل تقوم على جانبيه الضواحى العديدة ، ويشقها فى الوسط نهر يصل إلى « بيزا » ، غير أننى لن أطيل الـكتابة عن هذه المدينة مرجئاً كلامى عنها إلى وقت آخر[12] .

عبرت جبال الألب من فلورنسا إلى « بستويا » ماراً فى طريق بكثير من القرى حتى بلغت بولونيا ، حيث لقيت البابا « إيوجين[13] » ، ولقينى

من كان بها من القشتاليين بأعظم آيات الترحيب ، كما أكرم القس والفرسان وفادتى وأصروا على مرافقتى حين التمست الإذن من البابا فى التوجه إلى بيت المقدس ، فأجاب ملتمسى ونفحنى ببركاته ، كذلك أعطانى صك غفران تام عندما تحين ساعة الموت ، ولقد بقيت مستجماً هناك خمسة عشر يوماً شاهدت خلالها الحفلات التى يشترك فيها الأشراف والعامة معاً على السواء ، وكان الوقت منتصف الشتاء حيث اعتاد الناس تسلية أنفسهم والاحتفال بعقد زيجاتهم وإقامة أعراسهم .

وتعتبر المدينة نفسها جزءاً من لمبارديا ، وهى عظيمة الضخامة آهلة بالسكان ، تتوفر فيها جميع حاجات المعيشة ، ومن أجل ذلك تسمى « بولونيا السمينة » وأروع ما فيها بيوتها وشوارعها ، كما أن حاناتها قد بلغت الغاية من الحسن ، وأما أماكنها وأديرتها فآية فى الجمال ، ومن أعظمها دير « القديس دومينيكو » المبشر المدفون به جسد ذلك القديس الطوبانى الذى كان أحد مواطنى قشتالة ، وهو « قزمانى » الأصل من ناحية الأب « وأسّاوى » من جهة الأم ، ولقد كان الأخ الأعظم « دون لويس دى قزمان » منحدراً من نفس البيت ، ولقد أرسل إلى كبير خدام قصره « بدرو دى قزمان » الذى كان سفيراً لدى البابا وعضواً فى سفارة الملك جوان طالبا إليه أن يقوم بزيارة المكان المدفون به القديس دومنيك ، وصَرْف مبلغ معين من المال به كان قد أعطاه له لهذا الغرض ، ففعل ما أمر به .

ولقد رأيت المصلى والمعبر ، وهما الآن على أبدع صورة من الزينة ولكنهما كانا مهملين من قبل أشد الإهمال ، كما نقشت حولهما ورسمت أسلحة قزمان التى أمر بعرضها هناك الفارس الطيب « دون لايس دى قزمان » رئيس إخوان « كلاترافا » .

ويجرى عبر المدينة نهير يرجع الفضل إليه فيما هى عليه من فتنة ، كما يوجد بها مائة عين ماء بطواحينها ، بعضها لطحن الغلال والآخر للتوابل ، وغيرها لتنظيف الأسلحة وصناعة الورق ونشر الأخشاب وغزل الحرير ، ومن ثم ينتفع الأهالى بالمياه بشتى الطرق . وتوجد على أحد جانبى المدينة قلعة ذات جدار من الحصباء التى تقاوم بشدة طلقات النيران ، كما تقوم هنا جامعة من أشهر الجامعات فى الدنيا تدرس فيها جميع فروع العلم ، وترى الطلاب من مختلف الجنسيات وأعاظم لرجال يعملون فيها باستمرار ، والمدينة تابعة للكنيسة .

وفى أثناء إقامتى فى بولونيا اشتريت حيادى ، وركبت ورجالى إحدى السفن ، ووضعت بها بضائعى وسافرت إلى « فرارا » عن طريق ذلك النهر الذى وصفته آنفاً ، وهو شديد الضيق حتى إنه لا يمكن لأكثر من سفينة واحدة المرور به ، وإذا حدث أن التقت به سفينتان اضطرت إحداهما إلى الجنوح إلى الشاطىء حتى تمر الأخرى ، وتتجمد مياهه كل ليلة ويستعمل الأهالى قوارب قد غطيت قيعانها بالحديد ، ومن ثم يروحون ويغدون بها ليلا على النهر ، ويحطمون الثلج بأعمدة ذات رءوس حديدية مدببة ، وبذلك يشقون طريقاً للسافرين به ، وترى الأطفال يمرحون ويغنون مؤملين وجود الجليد بكثرة .

وقد استطعنا أن نصل عن طريق النهر إلى نهر « بو » ، وهو من أكبر مجارى المياه فى الدنيا وأحد الفروع الأربعة التى تنحدر من جبال الألب الألمانية ، ووصلنا عبر هذا النهر إلى مدينة « فرارا » التى ما كدت أبلغها حتى مثلت بين يدى صاحبها المركيز[١٤] ، وبقيت بها ثلاثة أيام ثم غادرتها عن طريق النهر إلى مدينة « فرانكلينو » ، وتابعت سيرى بعدئذ بالسفن

فى النهر ذاته حتى وصلت إلى البقعة التى تدخل البحر وتبلغ مسيرة يوم واحد .

. . .

بلغت البندقية[١٥] عند الغروب ، وقد قام على اليمين والشمال كثير من الكنائس والأديرة والحانات ، وكلها فى الماء كالبندقية ذاتها ؛ وما كادت قدماى تطآن اليابسة حتى أسرعت لرؤية كنيسة القديس مرقص المبنية على مشارف المياه ، وأديت الصلاة بها ، فلما فرغت منها ذهبنا إلى خان اسمه « السمكة » La Storione[١٦] وهو من أحسن النُّزُل بها وأروعها فأقمنا به يومنا هذا والليلة التالية له ، فلما كان الغد بعد انتهاء القداس رحت أسأل عن الصيرفى « سلفستر موروزينى » حيث كانت معى صكوك مالية تدفع من قبله ، وسرعان ما وجدته فأخذ أحدها ونقدنى القدر المطلوب ، وهذه طريقة لا يتوقفون قط عن الدفع بها ، ذلك أنه على الرغم من استعمال جميع التجار فى كل ناحية من نواحى العالم صكوك الدفع هذه إلاّ أن القوم هنا أسرع الناس لقبولها ، ولقد قضيت ذلك اليوم معه ومع « كارلا مدروزينى » وهو أحد التجار الذين كانوا فى إشبيلية ، وظل أمداً طويلا وهو يستأجر بعض المناجم ، وقد توثقت أواصر الصداقة بينى وبينه فى بيت السيد « دون لويس » ، ومن ثم رحب بى أجمل ترحيب ، وأباح لى التمتع بالحرية فى داره التى بقيت بها طول فترة مكثى فى البندقية .

وحين كنت هناك رحت أستفسر عن سفرتى إلى بيت المقدس ، وعلمت استحالة النهوض بها قبل ثلاثة أشهر حيث لم تجر عادة سفن الحجاج على الابحار حتى يوم الصعود فى شهر مايو ، وأحببت أن أقضى تلك الفترة فى زيارة العالم المسيحى ، ومنها بلاط الإمبراطور وبلاط ملك فرنسا ، غير أن أصدقائى التجار

الذين التمست مشورتهم نصحونى بالتخلى عن هذه الفكرة إلى حين عودتى من أداء فريضة الحج لبيت المقدس ، على أن أقوم فى أثناء ذلك بالتجول فى أنحاء إيطاليا وهذا أمر جدير بالاهتمام ، وإذ كان موعد الصيام الكبير قد دنا ففى استطاعتى قضاؤه فى رومة ، ثم الرحيل بعدئذ إلى نابلى ومقابلة ملك أراجون ، وذكروا لى أنه بعـــد إنجاز ذلك كله يتبقى لدى عشرون يوماً أو أكثر قبل إبحار السفن إلى بيت المقدس ، ورأيت أن هذه خير نصيحة محضونى إياها فاستجبت لها ، ومن ثم مضيت لزيارة إيطاليا ، فشاهدت كثيراً من المدن الكبرى والصغرى والقرى والقلاع ، حتى إذا جاء الصوم الكبير ذهبت إلى رومة ، بيد أن البابا « إيوجين» كان إذ ذاك فى مدينة « بولونيا » كما قلت آنفاً حيث أخرجه من رومة فريق من المشاغبين الذين امتشقوا السلاح ضده ، والذين كانوا يرومون قتله ، فإن لم يكن فأسره ، إلا أنه فرّ فى قارب على نهر التيبر ومضى إلى « بيزا » ، ومن هناك إلى فلورنسا ثم إلى بولونيا .

الفصل الثالث

روما . البابا . الأسوار . التيبر . الفاتيكان

نزل ماركس أويليوس . الكولوسيوم

بعض الكنائس . سوء حال المدينة

سكانها . الحيوانات الضارية

أقمت فى روما[١٧] طوال فترة الصوم الكبير زائراً المعابد والمبانى القديمة التى بدت لى أروع ما تكون صناعة ، ولا يقتصر الأمر على عجزى عن وصفها بل أشكّ فى أنى مستطيع تقديرها التقدير الجديرة به ، وأرجو الصفح إن قصَّرتُ فى بيانى عنها وفى وصف ما عليه روما من فخامة وعظمة ؛ ولا أقدر على النهوض بمثل هذا الأمر نظراً للمدى البعيد من التخريبْ الذى ألمَّ بهذه المبانى القديمة ، وما طرأ عليها من تغيير وتدهور ، ومع ذلك فمن الجلىّ البيِّن أنها تبدو لمطالعيها أنها كانت فى فترة من الفترات بالغةَ الفخامة رغم ما حاق بها من الأهوال بعد أن أخذَت روما فى السقوط من جراء المنازعات التى شبّ أوارها بين أبنائها الأمراء أنفسهم ، ورغم الدمار الذى أنزله بها الملوك الذين حاربوها ، ورغم يد الزمن التى تطحن كل شىء بثقالها . أضف إلى ذلك أن البابا القديس جريجورى كان قد رأى جموع المؤمنين وقد انثالوا إلى روما طلباً لنجاة أرواحهم تعتريهم الدهشة ويستبدّ بهم الذهول لروعة المبانى القديمة ، حتى أنهم ليقضون وقتاً طويلا فى تملّيها والإعجاب بها ، وينسون

الغرض المقدس الذى قاموا من أجله بهذه الزيارة ، ومن ثم أنفذ البابا أوامره بتخريب كل أو عظم الآثار التى طاولت الزمن منذ القدم .

• • •

ومحيط دائرة المدينة كبير جداً ، وتمتد أسوارها محتضنةً إياها مسافة أربعة وعشرين ميلا أعنى ثمانية فراسخ من فراسخنا ، وهذه الأسوار فى بنائها وارتفاعها تظهر كأنما قد فرغت اللحظة منها يد مبتدع صناع ، أما نواحيها التى هدمت فقد كان الطغاة ينفذون منها إليها بين آن وآخر لأن العمل من الضخامة بالدرجة التى يتحدى معها التخريب المقصود ، وإذن فلا عجب أن ظلت هذه الأسوار على حالها وبقيت كما بناها الأقدمون .

ويجرى فى وسط المدينة نهر جَلَبه الرومان إلى هناك وبذلوا جهداً شاقاً وأجروه فى وسطها وهو نهر « التيبر » ، وجعلوا للنهر أخدوداً جديداً يزعم الزاعمون أنه من الرصاص ، ومدوا القنوات بين أطراف المدينة وتشرف على مداخلها وخارجها بغية سقى الجياد ولأداء سواها من الخدمات اللازمة للناس . فإذا دخلها أحد ما من جهة غير تلك الجهات كان لابد له من أن يغرق ، وعلى جانبى النهر تقوم الطواحين التى تجعل من المدينة وحدة قائمة بذاتها .

وعلى أحد ضفتى التيبر حصـــن قائم على ربوة ظلت تتراكم وترتفع حتى صارت جبلا ، وحول الحصن سـور شاهق الارتفاع به أبراج كثيرة قوية ويسمى حصن « سنت أنجلو » ، وهو يقوم على جسر مشرف على نهر التيبر فى الطريق إلى كنيسة القديس بطرس التى تعتبر مركز الرسل ، ويقال إنه اجتاح رومة ذات مرة طاعون تفشى بها واستمر أمداً طويلا ، وأوحى إلى البابا جريجورى بوجوب الخروج فى موكب إلى كنيسة واقعة عند أحد طرفى المدينة

تسمى كنيسة « القديســة أجاثا » حيث كان يوجد صنم يعبده الوثنيون بل ويتقرب إليه المسيحيون سرًّا ، لأن بعض الشعائر الوثنية ظلت حية باقية ، فلما وصل البابا فى موكبه إلى الكنيسة وجاء إلى الصنم انطلقت منه جلبة أشبه بالرعد وتهاوى قطعاً ، فلما أبصر البابا هذه العجيبة تابع موكبه ، وبينما كان عائداً خائفاً إلى كنيسة القديس بطرس عند الجسر الواقع عند سفح هذا الحصن تجلى للجميع ملَك قد جرّد سيفاً فى يده وكله ملطخ بالدماء ، ثم أخذ يمسحه بعباءته ليزيل ما علق به من تلك الدماء ، ثم عاد فوضعه فى غمده ، فعُدّ هذا الأمر إشارة إلى هدوء الرب وأنه لا يريد أن يموت أكثر ممن ماتوا ، وهكذا انهارت الوثنية ، وأطلق على الحصن منذ ذلك الحين حصن « القديس أنجلو » ، ولا يزال يسمى إلى اليوم بهذا الاسم وقد نصب عليه تمثال ملاك ، وأخذ البابا جريجورى هذه المعجزة وغيرها من الأمور القوية العجيبة التى جرت فى رومة بعين الاعتبار ، ومن ثم شرع فى هدم كثير من المبانى القديمة لأنها صرفت انتباه الحجاج عن الأماكن المقدسة ، غير أنه لم يحطمها جميعاً ، ولا زال الذين يذهبون اليوم إلى هناك — إذا أرادوا مشاهدة الأشياء الجميلة — يمضون إلى هذه الأطلال قبل أى شىء آخر .

ومسكن البابا ملاصق لكنيسة « القديس بطرس » على منحدرات تل « أفنتين » ، وهذه هى البقعة التى كانوا يستعملونها من قبل لضمان حرية روما ، وهى ذات الطريقة التى يصطنعونها لضمان الملة التى يعتبر البابا حاميها ضد الهراطقة الذين يرغبون فى محوها ، وجرت عادة الأباطرة على البقاء هنا عدة أيام قبل تتويجهم كما لو كانوا يعسكرون ضد أعداء الكنيسة ، ثم يتسلمون بعدئذ التاج المصنوع من الذهب فى سلسلة من الاحتفالات التى أعجز عن

تفصيلها ، أما مسكن البابا فمكان متواضع ، وقد كان غير مرتب حين كنت هناك .

. . .

وكنيسة القديس بطرس[١٨] بيعة شهيرة ، ومدخلها رائع جداً ، ويصعد المرء إليها بدرج بالغ الارتفاع ، وتحلى سقفها الفسيفساء الكثيرة ، أما الكنيسة من الداخل فضخمة وإن تسكن شديدة البساطة ، وقد بلغت من السوء والقذارة حداً كبيراً ، وقد تهدم أكثر نواحيها ، ويوجد على يمين الداخل عمود يسامى ارتفاع برج صغير ، وفيه « الفيرونيكا » المقدسة التى إذا أريد عرضها فتحت فتحة فى سقف الكنيسة ودُلّى منها صندوق خشبى أو مَهْدٌ جلس فيه خوريّان ، فإذا نزلا رفع الصندوق أو المهد وأخرجا « الفيرونيكا » فى توقير عظيم وعرضاها على الناس الذين تحتشد زرافاتهم هناك فى ذلك اليوم الموعود ، وكثيراً ما يحدث أن تصبح حياة المصلين فى خطر لكثرتهم وشدة تزاحمهم .

وعلى مسافة أبعد قليلا يوجد عمودان كبيران قد أحيطا بالخشب يُرْبط إليهما من به مس من الشيطان ، وقد بشر سيدنا من هذين العمودين بين أهالى بيت المقدس ، وأمامهما الحبل الذى شنق به يهوذا نفسه ، وهو فى ثخانة ذراع الرجل أو أكثر ، كما يوجد فى المحراب الأعلى جسدا القديسين بطرس وبولص ، وفى يوم معين من أيام السنة يكون غفران الخطيئة والعقاب ، كما يوجد هنا أيضاً الكرسى الذى جلس عليه القديس بطرس ، والذى يجلس عليه البابا يوم انتخابه ، والواقع أنه من الخير أن ينظر الأغراب إلى هذا الكرسى بالتوقير لأنه ليس بالغنى ولا بالموقّر .

وبهذه الكنيسة كثير من المعابد ، ويقوم فى الجانب الآخر منها برج[١٩]

عالٍ صنع من قطعة واحدة من الصخر أشبه بقطعة الماس المثلثة الجوانب قد رفعت على ثلاثة قوائم نحاسية ، ويعدُّ الكثيرون هذا البرج شيئاً مقدساً فتراهم يزحفون بين الأرض وقاعه ، وكان قد أقيم تمجيداً ليوليوس قيصر وخصص لدفنه ؛ وبأعلاه ثلاث تفاحات ذهبية كبيرة فيها تراب الإمبراطور يوليوس قيصر ، ولا شك فى أنه بناء فخم رائع التنظيم بالغ الغرابة وهو يسمى بمسلة قيصر ، قد نقش فى وسطه وأسفله بل وعلى أعلاه أيضاً بضع رسائل قديمة مكتوبة على الحجر ، وإن صعبت قراءتها الآن ، ولكنها تشير فى الواقع إلى أن جسد يوليوس قيصر مدفون هنا ، وحول هذا البرج كثير من العمائر التى آل معظمها إلى أطلال دائرة .

* * *

وسكان مدينة رومة قِلة إن هم قيسوا إلى حجمها ، ويذهب الكثيرون للقول بأنه نظراً لتدهور المدينة وقلة عدد سكانها فإنه يخرج من بين أطلال المبانى الكبيرة ومن المخازن ومن الصهاريج والبيوت ومن الأقبية العميقة المهجورة الآن هواء سام يضر بالأجسام الآدمية ، ومن ثم يقال إن رومة مدينة غير صحية ، على حين أنها كانت عكس ذلك يوم كانت حافلة بالسكان ، بل إنه ليبدو — حتى اليوم — أنه حيث يزدحم السكان ينعم الناس بصحة أحسن كما هو الحال فى « كامبو دى فيارى » وهو حى كبير وكذلك « كامبى دوليو » ، وهو الآخر حىّ كبير أيضاً ، وفى « جليتو » التى هى أشبه ماتكون بقرية كبيرة ، أما بقية أنحاء المدينة فلا تضم سوى قليل من المنازل المبعثرة .

كانت كنيسة القديس يوحنا أول كنيسة أقيمت بين الشعوب اللاتينية ، ومن هذه الكنيسة يستمد الآباء المقدسون ألقابهم التى بها يصبحون مطارنة ،

وفى هذه الكنيسة وحولها أشياء فريدة تستحق المشاهدة ، فيقال إن هذه الكنيسة كانت البيت الذى احتفظت فيه رومة بثروتها، وبها بوابة «تربيان» التى فتحها قيصر ـ حينما استخرج الثروة ـ والتى ظلت حتى ذلك الوقت مغلقة ، ولما اعتنق الإمبراطور قسطنطين العقيدة الكاثوليكية وأعطى ممتلكات الإمبراطورية للكنيسة ومنحها إياها التمس من البابا سلفستر إصدار مرسوم بشأن هذه البوابة من أجل أرواح الذين يمرون بها باعتبارها كانت من قبل ملاذاً لمن يحتمى بها ، فإذا قدم هارب ما وبلغ بوابة تربيان لم يستطع أحد ما أخذه مهما بلغت جريمته وذلك تقديراً للكنز الموجود، ورسم البابا فى البداية بجب خطيئة كل من يعبرها وإسقاط عقابها ، مما حمل البعض على تعمد ارتكاب الخطيئة على أن تغفر لهم بعد مرورهم من هذه البوابة ، ومن ثم أمر البابا بإغلاقها وأن تفتح مرة كل مائة سنة ، ثم خفضت المدة إلى نصف قرن من الزمان ، والآن فإن البابا راض بما رسم .

ويوجد بهذه الكنيسة رأسا القديسين بطرس وبولص ، وهما أثر عظيم جداً وآيتان لغفران الخطيئة ومحو العقاب حين عرضهما كما يحدث أثناء عرض ڤيرونكا فى كنيسة القديس بطرس .

وإلى جانب تلك الكنيسة يوجد مذبح صغير يسمونه «قدس الأقداس» به صورة للسيد المسيح تبدأ من الزنار إلى أعلى وهى منقوشة على حجر، ويقال إن سيدتنا العذراء التمست من القديس لوقا ـ وكان رساماً قديراً ـ أن يرسم هذه الصورة بعد موت ابنها ، فقبل رجاءها ورسم الصورة التى هى فى الواقع عمل من أعظم الأعمال قداسةً وأنسب ذكرى للمسيح الذى كان ولا تزال له القوة على جميع الأشياء ، والصورة تظهر بجلاء هيكله وعمره وشكله وكل ما كان عليه ، وعلى خده الأيسر خال هو رمز إنسانيته ، وهى أقدس شىء

وأعظم أثر فى رومة . ويحرس الصورة على الدوام ـ وساعةً بعد ساعة ـ أربعة رجال مسلحون بصولجانات حديدية ، فإذا كان يوم معين من السنة وهو عيد العذراء فى منتصف أغسطس خرجوا بهذا الأثر المقدس محروساً برجال مدججين بالسلاح ، وحملوه وسط مظاهر الفرح وساروا به فى موكب إلى كنيسة القديسة ماريا الكبرى ، حيث يبقى طوال هذا اليوم وتلك الليلة ثم يعودون به فى اليوم التالى إلى موضعه الذى كان به ، وتغفر إذ ذاك خطايا جميع من يكونون حاضرين ، على أنه لا يسمح قط لأية إمرأة بدخول الكنيسة ، ويقولون إن السبب فى ذلك هو ماحدث ذات مرة من أن امرأة تحدثت بما جرى فانشطرت شطرين ، وعلى باب هذه الكنيسة ناقوسان يقال إنهما كانا أول ناقوسين صنعا فى العالم .

ويجرى انتخاب البابا فى كنيسة القديس يوحنا ، حيث تقام مختلف الاحتفالات ، ويتسلم البابا التاج الثلاثى ، وتحفل الكنيسة بكثير من آثار القديسة هيلينا أم الإمبراطور قسطنطين التى بعث بها ابنها حينما كان فى الأرض المقدسة .

أما الكنيسة فكبيرة ولكنها ليست غنية ، وينقصها حسن البناء ، وتعوزها النظافة والزينة الجيدة ؛ على أنه يوجد خارجها ميدان كبير به كثير من المبانى والتذكارات القديمة ، ويقوم هنا تمثال « ماركوس » (٢٠) الذى كان سبباً فى رفع الحصار عن رومة ، والذى أراد أن يقتل الملك فقتل عشيقته ، فأدان نفسه وأمر بحرق ذراعه اليمنى ، ويُرَى ممتطياً جواداً كبيراً من النحاس المذهب ، ويدل كل من التمثال والحصان على أنهما من يد ماهر صناع فى حرفته ؛ ويوجد حول الميدان وعلى مقربة منه كثرة متنوعة من التماثيل

الحجرية والرخامية والأحجار التى نقشت عليها نقوش قديمة .

. . .

وعلى مقربة من الميدان يقوم «الكولوسيوم» الذى يقولون إنه لايماثله بناء قط فى العالم بأجمعه من حيث حجمه وعظمته ، وعلى الرغم من استحالة أكثره إلى أطلال إلاّ أن مابقى منه يشير إلى ما كان عليه من فخامة وروعة ، ويطول بنا الكلام لو أردنا الحديث عن الكيفية التى حافظ بها الرومان على «الكولوسيوم» وتوقيره وعن التمثال الذى كان عندهم هناك [٢١] ، فقد كان كبيرا جداً حتى إن قدميه كانتا على الأرض على حين تبلغ رأسه أقصى ذروة فى السقف وترتفع ذراعه اليمنى ، على حين يمسك بيده تفاحة كبيرة ، وهى موجودة الآن على باب القديس يوحنا اللاتيران ، ومعنى هذا فى زعمهم أن العالم بأجمعه فى قبضته ، ومن هنا يقال إنه جاءت العادة بحمل تفاحة أمام الأباطرة ، ويضيفون إلى ذلك أن هذا التمثال كان محاطاً فى وقت من الأوقات بتماثيل لجميع ملوك العالم وأمرائه ، وقد شدت رقبة كل واحد إلى قدم هذا التمثال الكبير بسلسلة ، فإذا عرف أن أحد الملوك أو الأمراء قام بالثورة ضد رومة كسرا القوم تمثاله وصدرت الأوامر بإعلان الحرب عليه . ومهما تكن الحال فإن «الكولوسيوم» يدل على أنه كان فى زمن من الأزمنة بناء رائعاً وفاخراً .

وتوجد على مقربة منه قصور أكتافيوس أوغسطوس [٢٢] التى يقال إنه بناها وحصنها لما قصه عليه أحد السبليين من سقوط تمثاله إن جاءت العذراء بولد ، وكان هذا ماحدث من انهيار قصره يوم مقدم سيدنا ومولده ، ويقال إنه فى كل سنة حتى الآن يسقط جزء يوم مولد السيد المسيح ، وتوجد هنا ربوة كبيرة تشبه التل ، ويبدو جليًا أن هذه الربوة نتيجة سقوط بعض المبانى البالغة الضخامة ، حيث يتسنى للمرء رؤية كثير من الرخام والأحجار الكبيرة

وغيرها من الأشياء التي تكشف النتائج عما كانت عليه ، ويوجد هنا أيضاً دير شهير لأتباع «القديس برنارد» يسمى بدير «سانتا ماريا نوفا» .

وبروما كنيسة يسمونها كنيسة « سنت كروس » المقدسية محفوظ بها اللوحة التي كانت مرفوعة على صليب سيدنا وعليها لقبه « عيسى الناصري «Jhs Nazarenus» » وجميع ما في هذه الكنيسة ـ من أرضها وجدرانها وكل شيء آخر ـ مصنوع من تراب جيء به في السفن المرصف من بيت المقدس ، وذلك حين أرسلت القديسة هيلينا الآثار المقدسة إلى رومة ، وهنا تتم المغفرة التامة للخطيئة ويسقط العقاب، وتوجد كنيسة تسمى كنيسة «القديسة مارية»[٢٣] كانت فيما سبق المكان الذي يعقد فيه الشعب الروماني مجلسه ، وهي قائمة على أعمدة كبار تعلوها طبقة من الرصاص ، ويخصص يوم واحد في السنة لمنح الغفران بها ، كما توجد كنيسة أخرى خاصة بطائفة معينة من الراهبات يوجد بها رأس القديس « يوحنا المعمدان » حيث يمنح الغفران في يوم عيده ، ويجاوره عمود كبير مصنوع من حجر واحد أقيم تخليداً لذكرى الإمبراطور «تراجان» الذي جاء من قشتالة وكان من أهل « بدرازا » ، وهو الذي سنّ لرومة قوانينها التي لازلنا ولازال الرومان يعملون بها حتى يومنا هذا ، سواء في الحرب أو في تصريف الأمور العامة ؛ ويوجد أيضاً ثلاثة أو أربعة أقواس ولعل الرومان أقاموا أكثرها تمجيداً لشرف المنتصرين منهم ، ومن بينها قوس[٢٤] رائع جداً عُمِل تعظيماً ليوليوس قيصر .

وثمة كنيسة أخرى تدعى كنيسة «سانتا ماريا أرا كولي» تحتها حجرة كبيرة على شكل قبو كان الرومان يعقدون بها مجلسهم في بعض الأحيان ، وجرى فيها اغتيال يوليوس قيصر على أيدي «كاسيوس» و«بروتوس»، ويتاخمها كنيسة

«سانتا ماريا ماجورى» حيث يمنح الغفران التام بها فى يوم معين من السنة؛ ويوجد عند الباب ـ فى الميدان الكبير ـ عمود من الرخام السماقى يجل ثمنه عن التقدير ، وتحفل هذه الكنيسة أيضاً بكثير من الآثار المقدسة .

* * *

ويتصل بها كنيسة «القديس براسادا» التى يوجد بها نصف العمود الذى رفع عليه المسيح ، ومسجى بها أيضاً جثمان القديس «جيروم» الطوبانى الذى يمنح الغفران التام يوم الاحتفال بعيده ، أما الكنيسة التى حبس فيها القديس بطرس فتسمى بكنيسة « بطرس المصفد » حيث يمنح الغفران كذلك ، وخلف أسوارها تقوم الكنيسة التى أعدم [٢٥] فيها القديسان «بطرس وبولص» والتى يوجد بها بعض العيون ذات المياه الشافية ، وهنا أيضاً تم نعمة الغفران التام ، ويجاورها دير القديس بولص، وهو دير شهير جداً للاخوان المبشرين، وفيه أيضاً يُمنح الغفران .

* * *

وتتوفر بهذه المدينة أشياء أخرى كثيرة ومعابد ، ويتم بها الغفران ، كما توجد فيها مبان مدهشة يستغرق وصفها أمداً طويلا ، ولما كان الذين يقدمون لزيارة الأماكن المقدسة يمضون وقتهم فى الإعجاب بالمبانى القديمة والأطلال فقد أمر البابا جريجورى بتحطيمها أو تحطيم معظمها حتى لا يشغل الحجاج بالهم بها ، وحتى ينصرف اهتمامهم إلى الأماكن المقدسة وحدها ، ومع ذلك فإنه لم يستطع هدمها جميعاً ، إذ أن مابقى منها ليظهر ما كانت عليه هذه الأشياء أو بعضها يوماً ما .

وهنا كان قبرا « رومولوس » و « ريموس » أول بناة روما ، كما نصب كذلك كثير من التماثيل للرجال والنساء تذكاراً خالداً لأعمالهم . وأما رومة

التى كانت رأس العالم وأصبحت الآن ذيله فلم تفقد شيئاً من شعائرها التى كانت لها يوم كان العالم بأجمعه يدين بالخضوع لها ، ولكن تعاسة أحوال المدينة اليوم تجعل من العار التكلم عنها ، ويقال إن الرومان — رغبة منهم فى ألا يفقدوا مكانتهم كسادة للعالم وقت أن كانوا مسيطرين عليه — يقومون فى يوم معين من السنة بتقديم احتجاج رسمى إلى البابا معلنين أنهم لازالوا مستعدين لإخضاع العالم كما كان الحال قديماً ، وأنهم لم يفقدوا حقوقهم وإنما جردهم البابا منها ، ويقومون بهذا الاحتجاج الرسمى يوم الثلاثاء الذفر ، ولو شاء الله أن يكونوا قادرين على حكم أنفسهم بأنفسهم ولم يكونوا — كما يقول الإيطاليون عنهم — شعباً غير ذى قيمة لما مارسوا كل رذيلة ، ولما لعنهم الجميع .

ولم أجد فى روما واحداً استطاع أن يكون قادراً على إنبائى بخبر تلك الأشياء القديمة التى كنت أستفسر عنها ، ولكنهم قادرون بلاشك على تزويدى تماماً بأماكن جميع الحانات وسواها من الأماكن ذات السمعة السيئة ، ويقال إن الناس لا يتناولون أبداً غذاءهم فى بيوتهم مهما كانت الظروف ، وهيهات أن يتأتى لأى معجزة أن تحملهم على ذلك ، وليس من شك فى أن مابسهم ومظهرهم — داخل بيوتهم وخارجها — يكشف بجلاء عن حقيقتهم ، وينصب قولى هذا على أغلبهم ، إذ أنه لا جدال فى أن بين هذه الكثرة جماعة من الصالحين ، ويقال أكثر من ذلك إن رومة تضم بين جوانبها من السكان رغم قلة عددهم أكثر مما يضمه أى بلد نصرانى آخر فى العالم ، غير أنه يوجد بعض نواح داخل أسوارها تبدو كأنها الغابات الكثيفة ، حتى ليقال إن الحيوانات المفترسة والأرانب والثعالب والذئاب والغزلان بل والقناقذ تعيش فى الكهوف .

• • •

وبرومة لوحان يزعم القوم فيما يزعمون أنه حدث ذات مرة شجار بين

العامة والنبلاء ، طلب فيه الشعب معرفة السبب الذى يذهب من أجله النبلاء بالتقدمة دونه ، على حين أنهم جميعاً أبناء أب واحد هو آدم وأمهم بالتالى جميعاً حواء ، وقال العامة فى نقش نحتوه [٢٦]:

Cum Pater Adam nobis sit, mater Eva, Cur igitur non Sumus nobilitate Pares ?

« إذا كان آدم قد خلق من أجلنا ، فيا أمنا حواء لماذا نحن غير متساوين فى كرم الأصل ؟

وإذ ذاك أجابهم النبلاء : « كل الناس يفسدون بتصرفاتهم ، ويصبحون أقل درجة ، ولكن الفضيلة أرفع ، والأخلاق تطوّر إلى الارتقاء »

Degenerant omnes viciis, fuint que minores, exaltat Virtus, nobilitantque mores.

ومن ثم يقال إن للنبلاء سلطة شرعية تفوق سلطة العامة . أضف إلى ذلك أن هذا كان السبب الذى من أجله نص القانون على أنه لا يحق للرجل أو المرأة من الشعب أن يتولى منصب القنصلية ، وقد شُجِب هذا القانون فيما بعد حين اقترح « سالوست » تعيين — جايوس ماريوس فى مجلس السينيت .

الفصل الرابع

زيارة بعض المدن الإيطالية . مقابلة
كونت أربينو رافنا والبندقية .
الاستعداد للرحلة

غادرت رومة و بلغت « فيتربو » ، وهى مدينة رائعة جداً حيث توجد بها حمامات ذات مياه ساخنة يقال إنها تشفى جميع العلل وتُذْهب شتى الأمراض، كما يقولون إن البابا أنفذ أوامره بهدمها استجابةً لالتماس طبيبه الخاص ، ولا يعرف أحد الآن أىّ أنواع الأمراض تبرئه هذه المياه ، وإن ساد الاعتقاد أنها شفت فى فترة قصيرة — منذ إنشائها — مرض الاستسقاء ، كذلك يوجد فى « فيتربو » جثمان القديسة روزة المقدس .

تركنا فيتربو ومررنا بمدن « نارنى » و « تيرنى » و « سبوليتو » ، حتى أدركنا فى النهاية « بيروجا » الذائعة الصيت التى ولد بها القائد العظيم « بُرَكْيُو »[٢٧] و « سفورزا » والد دوق ميلانو الحالى .

وهذا الإقليم بأجمعه آهل بالسكان ، حتى لتبدو المدن والبلاد والقلاع وكأنما قد اتصل بعضها بالبعض الآخر .

غادرت بيروجا إلى « أسّيسى » التى وُلد بها القديسان فرنسيس وكلير ثم احتوت أرضها جثمانيهما ، وهى مدينة نابهة ، تضمّ بين جوانبها ثمانية أو عشرة أديرة للرجال والنساء من أتباع الطوبانى المبارك فرنسيس ، ويقع الدير الرئيسى فى أكبر ميادينها ، ولما مضيت للنزول فيه وجدتُ به واحداً من

أتباع كردينال قشتالة الذى كان صديقاً حميما لى فأقمت بالدير مستجما ثلاثة أيام سويا ، والشائع أنّ جسد القديس فرنسيس مدفون فيها ببقعة ما يدلوّن الطالب عليها ، وإن كان الحق أنها غير معروفة على وجه التأكيد حتى ولا لمن بالدير ذاته ، ولا يعرفها حقاً سوى البابا الذى أفضى بسرها إلى أحد الكرادلة وإلى واحد من الإخوان الرهبان . وهذا الدير يبلغ من الروعة أقصاها ، ومن إبداع الصنعة منتهاها .

• • •

رحلت بعدئذ إلى «جوبيو» التابعة لكونت «أدبينو» من بيت ملاتستا[٢٨] ، بيد أنى صادفت فى الطريق عسكراً مدججاً بالسلاح قد أقامه كونت فرانشسكو الذى كان إذ ذاك قد شنّ حرباً على البابا واستولى على كثير من الأماكن ، فنصحنى البعض أن أرسل جيادى من « أسيسى » بصحبة رجل معروف هناك كان ماضياً لمقابلة الكونت ، وذكر لى هذا البعض أنه يرى الخير لى فى ذهابى مترجلا ، فامتثلت لمشورته ، وبعد مسيرة يومين ونصف يوم أدركت «جوبيو» ، وهى مدينة كبيرة تابعة للكونت الذى وجدته إذ ذاك ماضياً فى موكبه مترجلا لتحية كردينال كولونيا أخى زوجته وابن أخى البابا مارتن ، ثم أبصرته قادماً وقد أحاط به رجال الدين وهو يرتل معهم حيث قابلوا الكردينال وتلقوه لقاء كريماً ، فقدمت نفسى للكونت ورفعت إليه احتراماتى والتمست منه — محبةً فى الله — أن يمد يد المعونة لى ، فما أنا إلا رجل فقير قادم من روما وماض فى طريقه إلى بيت المقدس ، وكان رجالى قد تخلفوا عنى ، إذ كنت قد طلبت إليهم عدم مصاحبتى ، فانتحى بى الكونت جانباً وبادرنى قبل كل شىء بالسؤال من أين جئت ، فقلت «من أسبانيا» ، وحينذاك أخذ يستوضحنى عما إذا كنت عريق الأصل ، فقلت « أجل » ، فسألنى إن كنت فارساً فرددت عليه بالإيجاب ، وتطرق بعدئذ فرغب فى أن أخبره كيف جئت وعما أحتاجه ،

فأفضيت إليه بخبر مقدمى وحضورى سيراً على الأقدام ، وزدت فأثبت أنى فى غير حاجة إلى شىء ما لاستكمال رحلتى بسبب ما توفر لدىّ ، وذكرت له أنى ماجئت متنكراً على هذه الصورة إلا لرؤيته والتحدث إليه ، فعانقنى حينذاك وقال « سوف أبذل كل ما فى قدرتى لمساعدتك حتى ولو لم تقبل » ، إلا أننى أجبته بعدم قدرتى على قبول شىء ما أيّاً كانت الظروف طالما أن لدىّ كل ما أحتاجه ، ولأننى صممت على ذلك قبل مغادرتى وطنى ، ورغم هذا فقد استبقانى يومين للاستجمام والمتعة ، حتى إذا انقضى هذان اليومان بعث فى طلب أحد أتباعه وأمره بمرافقتى طوال تجوالى فى ولايته حتى أبلغ ميناء « ريمينى » التابعة له ، على أن تكون جميع مصاريف سفرتى هذه على نفقته فلما بلغت « ريمينى » وجدتُه قد هيّأ لى مركباً وكل ما أحتاجه فى رحلتى إلى البندقية .

وعندما هممت بفراق الكونت أخذنى من يدى ومضى بى إلى حجرته، وطلب إلىّ أن آخذ كل ما أنا فى حاجة إليه ، وأعطانى ثلاثة أزواج من كل من قمصانه وملابسه الصوفية ومناشفه ، وإن يكن قد أزعجه كل الانزعاج رفضى قبول أى شىء آخر غير ما أخذت ، ثم ودعنى وداعاً رقيقاً كما لو كنا ندّين متساويين ، وألحّ على أن أذكره فى صلواتى، وأن أعاود زيارته وأنا فى طريق أوبتى ، إلا أن الموت قد مد يده إلى هذا الكونت الطيب ، ويقال إنه مات ميتة كريمة جداً ورفع إلى مرتبة القديسين .

وتحفل « جيبيو » بكثير من المخلفات المقدسة التى من بينها أصبع يد يوحنا المعمدان اليمنى التى أشار بها حيث قال «هذا هو حمل الله» Ecce agnus Dei.

رحلت مع ذلك التابع وبلغت « أربينو » التابعة للكونت فلبثنا بها

يوماً واصلنا رحلةً استغرقت يومين بلغنا فى نهايتهما مدينة «ريمينى» الكبرى التابعة هى الأخرى للكونت ، وأقمت بها يومين ، جهز لى خلالها التابع قارباً شحنه بالزاد ، ودفع جميع نفقات السفرة حتى أبلغ البندقية ، فلما هممت بفراقه قال لى : « سيدى الفارس ، لقد أمرنى مولاى الكونت بأن أعطيك مائة دوكات وها هى ذى الآن » ، فطلبت إليه أن يشكر الدوق شكراً عظيما على شفقته وكرمه ، إذ لدىَّ من المال ما يكفى جميع حاجاتى ، وقلت له : « إن وجدت نفسى فى ضائقة فى طريق عودتى إلى وطنى فإنى لا بد ملتمس منه مساعدته إياى ، هذا إلى أن رجوعى قريب » ، ثم رجوته أن يقبّل لى يدى الكونت نيابة عنى ؛ ومن ثم انطلق كل منا فى سبيله .

ركبت سفينتى وأبحرنا ، فبلغنا فى اليوم التالى مدينة راڤنا الكبيرة الموغلة فى القدم وإن تكن غير زاخرة بالسكان ، وصادفتنا ريح رخاء ، حتى إذا كان وقت المغرب أدركنا البندقية فتلقانى أصدقائى التجار لقاء طيباً ، ووجدت الأموال التى تركتها عند مغادرتى إياها فى يدٍ أمينة ، فأقمت فى بيت صديقى « كارلوموروسينو » ثلاثين يوماً أو أكثر ، حتى جاء يوم الصعود الذى يقع فى شهر مايو الذى يؤذن فيه للسفن — لا سيما سفن الحجاج — بالإقلاع[٩] ، وقد اتفقت أثناء إقامتى هذه مع قائد السفينة — كما جرت العادة — على تكاليف رحلتى وتموينى بذخيرة من المأكولات المحفوظة لوجبات الإفطار والغذاء والعشاء ، وكذلك أجر السفر ذهاباً وإياباً ، فكان خمسة وثلاثين دوكاتاً عن كل شخص ، ولما كنت قد فكرت فى الإقامة بالقدس فقد دفعت عن نفسى وعن تابعىَّ الاثنين مبلغ ستين دوكاً أى عشرين دوكا عن كل واحد منا .

ولقد أمضيت بالبندقية فترة من الزمن حلوة مريحة ، لم أتكلف فيها من النفقة غير شيء زهيد ، وكنت أخرج كل يوم لمشاهدة كثير من الأشياء الرائعة البهجة ، وتأتى الأخبار كل ساعة من جميع أقطار الدنيا لشدة نشاط حركة الملاحة ، كما تصل السفن باستمرار من شتى النواحى مما يقتضى المرء الاستفسار عن السفن إن هو شاء التماس نبأ ما من أى مكان .

الفصل الخامس

زارا . راجوزا . كورفو . خليج كورنثة
دير إغريق . ميدونا . كريت . رودس
الاسبتارية . الوصول إلى يافا

رحلنا يوم عيد الصعود بعد تناول البركة وأبحرنا ظهراً واتخذنا جانب الخليج الأيسر لأخذ المؤنة ، ميممين وجهنا شطر إسكلافونيا [دلماشيا] ، والجانب الأعظم منها بندقي ، وتتناثر على طول الساحل كثير من المرافىء الأمينة والجزر والموانى ، فلما كان اليوم الثانى بلغنا بلدة تدعى « بارنزو » حيث ركبنا البحر منها إلى مدينة « زارا » التابعة للبندقة ، ثم وصلنا إلى « راجوزة » الداخلة ضمن أملاك الإمبراطور ، وظللنا طول هذا الوقت نمر بجزائر تابعة لإسكلافونيا ، بعضها آهل بالسكان والبعض الآخر مقفر ، والإقليم جبلي قفل ، وأهله أطول من رأيت قامة ولكن ما أعظم همجيتهم ، وتربى فى هذه النواحى أحسن أنواع البزاة فى العالم باستثناء البزاة النرويجية ، ويقال إن الفضة موجودة فى أماكن كثيرة بها .

تابعنا رحلتنا على طول الخليج مارين بمدينة « ڤالونا » الكبيرة التى سقطت حديثاً فى أيدى الترك ، فلما غادرنا إسكلافونيا أبحرنا مصاقبين لألبانيا وهى جزء من نفس هذا الساحل ، وتركنا إيطاليا ورأس « سبَارْتِيفِنْتو » على يميننا .

ويمتد خليج البندقية مسافة ثمانمائة ميل بين إيطاليا وإسكلافونيا ،

وتقع فى نهايته جزيرة « كورفو » التى يسميها البنادقة ببابهم ، رغم أن البندقية تبعد عنها فى الواقع بثمانمائة ميل ، ويوجد على اليد اليمنى ذلك الجانب من إيطاليا المسمى « بأبوليا » وأرض « لافورو » ، أما على اليسار فتقع إسكلافونيا التى كانت تعرف قديماً بدلماشيا وكذلك جزء كبير من ألبانيا :

ويسكن الإغريق جزيرة كورفو التى استولى عليها منذ أمد قريب لاديسلاوس ملك نابلى[٣٠]، وكان أخذه إياها بنيّة الاستيلاء على بيت المقدس التى يسمى نفسه بملكها ، ويقال إن حاجته إلى المال فيما بعد حملته على بيع الجزيرة إلى البنادقة الذين آلت ملكيتها إليهم الآن ، وقد بقينا بها يومين فى انتظار ريح مواتية ، فلما كان اليوم الثالث أقلعنا مبحرين إلى « مودُنْ » ببلاد اليونان ، وقد مررنا هذا اليوم بخليج « بتْراس » على شمالنا وتمتعنا متعة كبيرة بمنظره ، وتقع هنا مدينة « كورنثة » ، وهى مدينة قديمة جداً وذات أبنية رائعة، ولكنها الآن قليلة السكان قلةً بالغة ، ويدخل هذا الخليج الأرض ويكوّن بالتقائه بالخليج الآخر الذى يدخل من الناحية الأخرى : شبه جزيرة المورة، التى كانت تسمى فى الأزمنة السحيقة « بآخيا » ، ويحكمها إمبراطور القسطنطينية، وهى إرث للابن الأكبر الذى يسمونه بطاغية المورة، ويتوغل هذان الخليجان توغلا كبيراً فى الداخل حتى ليقال إن المسافة الفاصلة بينهما لا تتجاوز ميلين ، وقد حدث ذات مرة أن أراد أحد أباطرة القسطنطينية أن يحيل شبه الجزيرة إلى جزيرة لكنه رجع عن فكرته امتثالا لرأى مشيريه واستجابة لنصيحتهم ، إلا أنه أحاطها بسور شديد المنعة لا يزال يُرى حتى اليوم .

فلما كان اليوم الرابع أصبحنا مواجهين لمدينة « مودون » ، وقبل

وصولنا إياها بستة أميال مررنا بجزيرة صغيرة يقوم بها دير شهير لإخوة « سنت باسيل » اليونانى الذين يسميهم اللاتين بالرهبان .

ولما كانت الريح قد هدأت وكفت عن الهبوب فقد رغبت فى رؤية الدير ، فسألت ربّان السفينة أن ينزلنى إلى الشاطىء ، وحملت معى بعض السمك ، إذ لا تسمح نظم هؤلاء الرهبان لهم مطلقاً بأكل اللحوم ، فتلقونا بالفرح العظيم ، وأطلعونا على ديرهم ثم ما لبثنا أن رحلنا ، وقد أخبرنا سكان الجزيرة أن الرهبان يعيشون عيشة بالغة القداسة ، ويسمى الدير بدير « ستانفان »[٣١] .

وصلنا هذا اليوم إلى « مودون »[٣٢] الواقعة بين هذه الجزيرة وجزيرة « سابينزا » ، فأرسينا بها لنموّن السفينة ولنمكن ربانها وركابها من إنجاز بعض الأعمال الخاصة بهم هناك لأنهم كانوا ببنادقة والمكان تابع للبندقية ، ويبلغ عدد سكانها ألفى نسمة ، ويكتنفها البحر من جانبيها ، وهى حسنة التسوير منيعة التحصين ولكنها منبسطة الأديم ، وأبصرت بها كثيراً من البساتين الحافلة بمختلف أنواع الفاكهة ، وأرضها شديدة الخصب تشبه فى ذلك أرض الأندلس ، والسكن بها طيب ، ولغة سكانها اليونانية وإن حكمتها البندقية . وعلى بعد ستة أميال منها مدينة « كورون » التى تقع فى الخليج الآخر الذى تكلمت عنه وهى مدينة كبيرة وقلعة حصينة ، واليونانية هى لغة الحديث هنا أيضاً ، وإن شابهت مودون فى أنها تحت سيادة البندقية ، ويمتلك البنادقة هذه الأملاك فى شبه جزيرة المورة لأنها مراكز حيوية لتجارتهم ، والقوم هنا أثرياء جداً لأن هذه الأماكن هى موانىء يفرغ فيها جميع ضروب تجارة اليونان والبحر الأسود ، فبقينا بها ستة أيام ، ثم أبحرنا

شطر « كانديا » التى كانت تسمى قديما « بكريتا » حيث حكمها ذات مرة الملك « أجاممنون » الذى قاد الإغريق ضد أهل تروجان .

وقد تركنا بحر الأرخبيل على يسارنا ، وهو ملىء بالجزر التى يزدحم بعضها بالسكان على حين يقفر منهم البعض الآخر ، ورأيت من بينها جزيرة « سيتيرا » المسماة عند اليونان « بسِتْريل » ، حيث أمسك « باريس » هنا « بهيلين » وحملها إلى طروادة ، كما أبصرت كذلك صخرة قوية ناعمة الملمس شديدة الارتفاع ، يتوسطها كهف ارتفاعه مائتا قامة[٣٣] وعمقه أكثر من ذلك .

والمسافة من « مودون » إلى جزيرة « كريت » ثلاثمائة وخمسون ميلا اجتزناها فى مدى يومين وليلتين وصلنا بعدهما إلى ميناء « كانْديا » ، ولما كان لاتين كريت لا يعرفون سوى مدينة كانديا فإنهم يطلقون هذا الإسم على كل المملكة ، والجزيرة شديدة الخصب عامرة بالمدن الرائعة والقلاع الحصينة[٣٤] .

ولسان أهلها اليونانية ، والحكومة تابعة للبندقية التى ترسل كل سنة دوقاً لحكمها ، وقد ثار أهل الجزيرة منذ أمد غير بعيد ضد البنادقة الذين أرسلوا قوة عادت لاحتلال المكان ، وصدر قرار بتحديد بقعة معينة من الجزيرة يمنع زراعة أى شىء فيها كما يمنع بها تكاثر الماشية، ويستهدف هذا القرار الحد من الرخاء الذى يتمتع به أهلها لتوفر كل شىء لديهم .

ومدينة « كانديا » كبيرة جداً تحفل بالمبانى الضخمة الكثيرة ، ويقال إنه يوجد على بعد ثلاثة أميال منها قصر التيه الذى شيده « دِيدالُسْ » بالإضافة إلى كثير من الآثار القديمة الأخرى ، والمدينة حسنة البناء زاخرة بالبساتين

الجميلة والمياه الوفيرة ، أما الميناء فمشهور وله حاجز صناعى رائع لصد الأمواج ، كما تكثر بها الطواحين الهوائية ، وتطير فوق الجزيرة — فى فترة معينة من السنة — أسراب كثيرة جداً من الشواهين قل أن تجد لكثرتها شارياً لها ، وقد بقينا هنا ثلاثة أيام ثم أبحرنا إلى « رودس » تاركين بحر الأرخبيل والجزائر المتعددة على يسارنا، والمسافة من « كانديا » إلى رودس تقدر بثلاثمائة ميل ، فلما كان اليوم الثالث بلغنا الجزيرة ووجدنا هناك بعض الأغربة والسفن التابعة للملك أراجون ، غير أننا سلحنا أنفسنا ورفعنا راياتنا المثلثة الصغيرة التى عليها صورة بيت المقدس ، فلما شاهدها القوم تركونا فى الحال وأبحروا .

ومدينة « رودس » منبسطة الأديم ولكنها محصنة بخندق وسور ، ويوجد على أحد جوانبها مكان منفصل يقيم فيه فرسان بيت المقدس المعروفون «بالاسبتارية»(٣٥) ويسمى « كولاكيم »، وفيه البيمارستان الذين اشتقوا اسمهم منه ، وهو من أفخم بيوت العبادة التى تسنى لى رؤيتها ، والواقع أنه لا يمكن أن يبزه بناء من حيث روعة العمارة أو الزينة أو كثرة المئونة ، ويستقبل الفرسان أى عليل يطرق بابهم ، ومن وافته منيته من نزلائه المرضى جُبّت خطيئته وبرىء من عقابه ، بل إن أولئك الأشخاص الذين يزورون المستشفى ينعمون بتغرافات مغينة ، ويقع هـذا البيمارستان على يسار الداخل إلى « الكولاكيم » ، وقد بناه دوق « أنطوان دى فلوفيان » كبير فرسان الاسبتارية الكتلانى المولد .

وقد رحلنا من هناك لمشاهدة المدينة واجتزنا كثيراً من الشوازع وبيوت الفرسان ، من بينها بعض نزل وخانات يتناول فيها الأجانب طعامهم وتتم فيها مقابلاتهم ، ولكل أمة مكانها المستقل عن الأمم الأخرى ، ويشرف على رعاية كل بيت من هذه البيوت فارس يوكل إليه أمر تأدية ما يحتاجه نازلوها

حسب ملتهم ، ويوجد عند نهاية مسكن الفرسان — وعلى اليد اليسرى — كنيسة القديس يوحنا التى يدعون إليها دائماً لأداء صلاتهم وعقد مجلسهم ، وتزخر هذه الكنيسة بكثير من المخلفات المقدسة ، ومن بينها — كما يقولون — الوعاء الذى غسل فيه المسيح يديه وجزء كبير من النقود التى بيع بها ، وكذلك بعض الشوك الذى توج به ، ومسمار من الصليب الذى رفع عليه ، وغير ذلك الشىء الكثير ، فإذا جاء الفرسان لانتخاب كبيرهم أقسموا على هذه الآثار المقدسة قاطعين العهد على أنفسهم بأنهم سينهجون الحق متخذين الحيدة شعارهم فى اختيار أجدر القوم بتولى هذا المنصب ؛ ويوجد أمام هذه الكنيسة البيت الذى يقيم به كبير فرسان الاسبتارية وهو مسكن عادى بسيط ، ويقوم بخدمة هذا السيد إثنا عشر فارساً يسمون « بالرفاق » يتشاورون معه ويأكلون دائماً على مائدته .

ويقوم الفرسان فى كل يوم من أيام السنة بإطعام إثنى عشر من الفقراء وخدمتهم بأيديهم ، لا يمنعهم من ذلك إلا انشغالهم بالمرضى أو تغيبهم عن الناحية .

ويوجد خان آخر لاستقبال حجاج بيت المقدس الذين ينزل كل واحد منهم الرواق الخاص بوطنه ، فيجد كل شىء حاضراً ومجهزاً له إلا الطعام ، كما توجد كنيسة أخرى بها بعض القسس الذين يتمثل عملهم فى تلاوة القداس للحجاج ، وهدفهم من هذا كله إبعادهم عن الفنادق العامة ، ويقوم الفرسان بزيارتهم ، أما من أراد استصحاب ضيف معه فيجوز له ذلك بإذن من كبير الفرسان الذى يعرف بالمارشال .

ويتوفر بجزيرة رودس الطعام والنبيذ ، كما أنها تحفل بالبساتين التى خصص الجانب الأكبر منها لمائدة كبيرهم الأخ الأعظم يوزعها بين من معه من إخوانه

الإثنى عشر ، ويوجد فى الجزيرة أيضاً قلعة يسمونها قلعة « يوديجو » ، ويمكن أن يقال الكثير عن هذه الثلة الطيبة من الفرسان ، ولكنى أتركهم الآن لأتحدث عن أشياء أخرى .

* * *

رحلنا عن رودس ومررنا « بقشتيل الروج[٣٦] » وهى جزيرة مواجهة لساحل أرمينيا ، كما أنه قلعة حصينة جداً تابعة للفرسان ، واتخذنا الطريق إلى قبرص محاذين شاطىء تركيا حيث يسكن كبار السادة الأتراك وكذلك الكرَمَان ، ولورد كانديلور ولورد ستاليا وسواهم من الحكام الأقوياء ، وهناك أخذونا إلى مدينة يقال إنها خربت من جراء خطيئة اللواط ، ثم أبحرنا لمدة ثلاثة أيام على طول ساحل خليج « ستاليا » حتى وصلنا إلى جزيرة قبرص مارين بمدينة إسمها « ألباف » ، غدت الآن مقفرة من السكان لفساد هوائها ورداءة مائها ، ولما لم تجر عادة حجاج بيت المقدس بالنزول فى الجزيرة فى رحلتهم الخارجية فلست بمستطيع فى هذا المكان أن أقصّ عليك أكثر من هذا بشأنها ولكنى سأتكلم عنها فيما بعد . وهكذا تابعنا رحلتنا إلى يافا ـ ميناء بيت المقدس ـ والمسافة بينهما تقدر بثلاثمائة وخمسين ميلا ، وظللنا مبحرين ثلاثة أيام بلياليها ، حتى إذا كان اليوم الرابع بلغنا شاطىء الأرض المقدسة ، ولكن لما كان معظم القطر شديد الانبساط فإنه لا يستطاع رؤية مدخل يافا .